## مدرسة بغداد الصوفية

يحسن هنا أن بين أن من مؤسسي مدرسة بغداد فريقا من الصوفية مهما بدا من بعدهم عن الفلسفة فإن عناصرها لا تلبث أن تتبين للمتفحص المدقق على صورة عبارات بسيطة تقتحمها العين ويغفل عنها الذهن ، أو إشارات عابرة وأخبار يبدو منها طابع الطرافة لكنها في الحقيقة تمثل البدايات التي ارتكز عليها كيان التصوف في بدايته ، ثم استطاع أتباعه ومناصروه التعفية عليها بمرور الزمن فصلا للتصوف عن الفلسفة ، التي أنهم أصحابها قبل غيرهم، بالبعد عن روح الدين الإسلامي التي تحرص على اتباع الكتاب والسنة وتنفر من المناورات العقلية والأساليب المنطقية والاقتباسات الفكرية من الفلسفة اليونانية سواء من الجانب المشائي المسرف في العقلانية أو الجانب الرواقي والأفلوطيني والغنوصي الصادر عن الفلسفة الروحية . وتمثلت هذه النصوص والأخبار بصورة العبارات التي سقناها في بداية هذا الفصل وفي أخبار رويت عن الجنيد البغدادي المؤسس الحقيقي للتصوف البغدادي على هذا الأساس العقلي الفلسفي حتى لقد صحت المقارنة بينه وبين أفلوطين على اشمل ما تكون المقارنة . ثم سيتبين لنا من دراستنا هذه مقدار ما أثر سقراط في أوائل الصوفية حتى لقد لقب بالمحاسبي صوفي بارز لا انتماء إلى قبيلة أو صنعة أو بلد وإنما إلى محاسبة النفس التي تعبر تعبيرا صوفيا عن المبدأ السقراطي المشهور إعرف نفسك.

### الجنيد البغدادي (ت ٢٩٨ هـ/ ٩١١م) :

ويمثل الجنيد بن محمد البغدادي القواريري الخزاز قمة المدرسة البغدادية الواعية في التصوف ، وكان تاليا للمحاسبي في الزمان والمكانة . ومما زاد تعمقه في التصوف العصر الذي عاش فيه ، فلقد كان القرن الثالث الهجري

عصر الاعتزال واستقلال المباحث الفلسفية وانتقالها من طور الترجمة إلى طور البحث والإفادة . وقد اختار الجنيد التصوف عن اقتناع بعد موازنة بين الأفكار والأحداث المختلفة فاندفع إلى أفكاره اندفاعا إيجابيا لا سلبية فيه.

ومن المسائل العقلية التي تميز بها الجنيد فكرة نفي الصفات وكذلك الجوانب الفلسفية في التوحيد من حيث نفي الكيف والحيث عن مفهوم الذات الإلهية والتوصل إلى أن «أصل عبادة الله معرفته، وأصل معرفته توحيده وأصل توحيده نفي الصفات عنه بالكيف والحيث والأين ، وهي جملة يخلص منها إلى أنه تعالى «فيه استدل عليه ، وهنا صار التوحيد عند الجنيد مؤسسا على التجريد المطلق وإقراره على أساس متين ، تقوم عليه الفكرة وهي في الأصل كلامية معتزلية نادى بها معارضاه أبو علي وابنه أبو هاشم الجبائيان.

شخصيته وآراؤه :

نشأ الجنيد في بيت خاله السري السقطي (ت ٢٥٤هـ / ٨٦٨م) ، وكان من شيوخ التصوف من نهاوند في إيران . وكان أبو الجنيد من أصحاب الحرف يبيع الزجاج ولذا لقب بالقواريري . أما الجنيد فكان خزازا وهذا يذكرنا بقيام الأفكار العقلية في الإسلام وغيره على أكتاف طبقة أصحاب الحرف وكان غلاة الشيعة وأوائل الزهاد الصوفية في جملتهم من هذه الطبقة ، كما مر.

كان الجنيد في بدايته فقيها على مذهب أبي ثور من أصحاب الشافعي ثم صحب المحاسبي ثم حاول إقامة التصوف على أساس عقلي مقترن بالمجاهدة، ومن عباراته المعبرة عن هذه النزعة قوله:

(ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات لأنه صفاء المعاملة مع الله وأصله العزوف عن الدنيا). هذا هو الجانب العملي . أما الجانب العقلي فيأتي عن عبارته القائلة : (لو علمت أن الله علما تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم، الذي نتكلم به مع أصحابنا ، لسعيت إليه وقصدته . عن الدنيا واستفدت هذا العلم من

جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة) . . ولئلا الإسلام ومناقض للاتجاهات يظهر التصوف بمظهر. شاد عن روح الإسلامية التقليدية.

أصر الجنيد على ربط التصوف بالكتاب والسنة فقال : (علمنا مضبوط بالكتاب والسنة. من لم يحفظ الكتاب ويحفظ الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به) . قال ذلك ليجنب الصوفية الذين يعتمدون في منهجهم العلمي على التأمل والمجاهدة، الغفلة عن الواجبات الدينية وبذلك يتورطون في مواقف تظهرهم بمظهر من

يفضل الجوانب النفسية الاجتهادية على التدين الشرعي التقليدي . ومما يظهر هذا التنوع في ثقافة الجنيد وأسلوبه في بناء التصوف على هذا الأساس العقلي ما ذكره أبو القاسم البلخي ، أحد كبار المعتزلة في القرنين الثالث والرابع الهجريين من وصف لمجلس الجنيد بأنه كان الكتبة يحضرونه لألفاظه والفلاسفة يحضرونه لدقة معانيه والمتكلمون يحضرونه لزمام علمه ، وكلامه بائن عن فهمهم وكلامهم وعلمهم . ويؤكد هذه الملاحظة عبدالله بن سعيد الذي صنف كتابا في الرد على الفرق وجعل يبحث عن مزيد من المذاهب للرد عليها وهدي إلى الجنيد باعتباره إمام فرقة جديدة. فلما حضر مجلسه وسمع منه كان حكمه عليه قوله:

(هذا شيء لا يمكنني مناظرتك فيه) . وكان ذلك منه لأنه سمع من الجنيد في التوحيد العبارات الآتية التي يشرح بعضها بعضا في رأي الجنيد.

١ - قال الجنيد : (مذهبنا إفراد القدم عن الحدث) . أي فصل الخالق عن مخلوقاته ووضعه بمعزل عنهم بمعنى نفي الصفات والغاء كل وجه شبه مادي يقوم بين الخلق والحق .

٢ - وقال : (التصوف هجران الإخوان والأوطان ونسيان ما يكون مما كان ) بمعنى أن الصوفية يعيشون في حاضرهم متوجهين إلى التوحيد في محاولة لإلغاء عامل الزمن من الكلي نحو المثل الأعلى الذي هو الله ، القديم الذي لا يتصل به زمان.

٣ ـ وفي محاولة لفهم التصوف، في رأي الجنيد وكيف يكون نثبت عبارته القائلة ، إعلم أن أول عبادة الله معرفته ، وأصل معرفته توحيده ، ونظام توحيده نفي الصفات عنه بالكيف والحيث والأين . ثم يذكر في شرح عبارته السابقة «فيه استدل عليه» قوله:

(استدلاله وكان سبب به عليه التصديق به ومن التصديق به وقع التحقيق به ومن التحقيق به جرت المعرفة به).

ومعنى هذا أن الصوفي إذا أراد أن يوحد الله على حقيقته ، على طريقة الصوفية ، فإن عليه أن يثقف نفسه ثقافة دينية تتصل بنفي الله وتوحيده توحيدا مطلقا ينتفي به المكان والزمان والكيفية . ومن ثم يتجه الصوفي إلى الداخل ليعرف الله عن طريق التعقل والتأمل ونفي الشك . وهذه هي المرحلة الأولى

أما المرحلة الثانية فتبدأ من بعد المعرفة به التي رأينا كيف تكون وذلك بالاستجابة إليه . ثم تؤدي الاستجابة إلى الترقي إليه ثم الاتصال به ثم البيان له ثم ذهاب الوصف عنه . وبعد ذلك يرى الجنيد أن الصوفي يقع في حقيقة الوجود له ثم في حقيقة الشهود بذهابه عن أنه موجود مفقود ، ثم الوجود .. وتكون النتيجة أن الصوفي يحس بعد ذلك أنه موجود موجود لانه خرج من سكر الغلبة إلى بيان الصحوه . وشرحا لهذه المعاني تذكر أن الجنيد يريد أن يقول ، إن الطريق إلى الله يبدأ بمعرفته معرفة تامة تؤدي بالإنسان إلى إدراك أن الدين الذي ندين به حق لا مراء فيه وأن المتدين الواعي يستجيب للتوحيد لا خوفا من النار ولا طمعا في الجنة وإنما اقتناعا وإيمانا بأن الحياة الإنسانية لا تحقق الغاية منها إلا بطاعة الله . هذه الطاعة تؤدي

بالإنسان إلى محاولة الوصول بفكره وعقله إلى العالم الروحي ليدرك جوهر الوجود ويذوب فيه ، ثم يروض نفسه على أن يألفه ليعود إلى وجود

الناس فيصفه لهم وصف مشاهدة وإدراك قلبيين ، فيستطيع أن يعبر عن العالم الذي بلغه بلفظ إنساني مفهوم بعد تخلصه من حالة الشلل النفسي لأول وصوله إلى العالم الروحي . وبذلك ترتفع الحيرة ويحل الصحو ويمكن التعبير . وهذه المراحل أربع بين بها الجنيد كيف يبدأ الإنسان ساذجا بسيطا وكيف ينتهي معبرا عن جوهر الوجود. وهذه

المراحل الأربع هي:

-المحلة الاولى السلوك الصوفي عن طريق الثقافة التوحيدية التي تبذر الإيمان في القلب وترفع الإنسان من المادية الشاكة إلى الروحانية المؤمنة الموقتة.

-المرحلة الثانية التي تتمثل في ترك العالم المادي للنفس عن طريق التصفية الروحية والتوجه الكامل إلى الله حتى تصل إلى العالم الروحاني ليعبر عنه تعبيرا أوليا لا يدركه الناس إدراكا تاما.

- المرحلة الثالثة : الاستمرار في التصفية ليبتعد الإنسان عن طبيعة العالم المادي عاجزا عن التحكم في نفسه وفي عباراته وتصرفاته ، وذلك بتسلط الوجود الروحاني عليه ، وهو الذي يعتبر في عرف الناس فناء إنسانيا ، وبذلك يصل الصوفي إلى حقيقة الوجود على صورتها التي تتمثل في العالم العلوي ، ويتطور الأمر إلى إدراك هذا الوجود ولمسه روحانيا بحيث يصبح جزءا منه . وهنا يبدو الاختلاف الكبير بين طبيعته وطبيعة الناس ، فإذا عبر عن مشاهداته في هذا العالم جاءت عبارته من جنس طبيعته مختلفة اختلافا كليا عما ألفه الناس على صورة شطحات ظاهرها مناقض للإيمان يوهم بإلهية الإنسان أو حلول الإلهية فيه ، وباطنها توقف الحواس عن العمل على الصورة المعتادة بانشغالها بعالم جديد.

ـالمرحلة الرابعة زوال حالة الغربة عن العالم المادي وتمكن السالك أو الصوفي من ضبط حواسه على الصورة الإنسانية واستطاعته التعبير عن أحواله ومشاهداته بطريقة إنسانية تناسب مفاهيم الناس ، لكنها تتصل بالعالم الروحي الذي عاد منه بعد وصوله إليه . وليست هذه المراحل الأربع غريبة على الفكر الفلسفي وربما كان مصدرها عند الجنيد نفسه متصلا بالفلسفة مباشرة . وقد ورد ذكر العالم الروحي عند فلاسفة اليونان واعتبرت النفس أفضل من الجسد ، والسمو بالجسد الإنساني إلى العالم الروحاني الحياة الحقيقية للإنسان في العالم المادي . واستمرت هذه الفكرة عند الفلاسفة حتى اعتبر التعبير عن المسائل العقلية عند كثير منهم نوعا من الاتحاد أو التذوق لما في العالم الروحي من معان.

وهذه الملاحظة للعنصر الفلسفي لأفكار الجنيد شجعت الباحثين على محاولة التعمق في بحث هذه المسائل . وقد نهض المرحوم الدكتور علي حسن عبد القادر لذلك فلاحظ شبها ظاهرا بين آراء الجنيد الصوفية وأفكار الفيلسوف اليوناني أفلوطين (٢٠٥ ـ ٢٧٠م) بحيث ظهر أن هذا التشابه يمكن أن يعدّ اتصالا وأخذا مباشرة أو بالواسطة من هذا الفيلسوف الصوفي اليوناني.

وتتمثل هذه الاتصالات بين أفلوطين والجنيد البغدادي في النقاط التالية:

١ ـ كان أفلوطين يخجل من وجوده في الجسم الإنساني ويأبى أن يهتم بأهله ووطنه تساميا عن العلائق المادية المحدودة في هذا العالم ؛ وكان من رأيه أن على الإنسان أن يتخلص منه. وهذه النقطة متمثلة في وضوح عند المتصوفة عموما وكثيرا ما تبرز في أقوال الجنيد وتطبيقاته العملية.

٢ - كان أفلوطين يرى قيام عالم الحق الأعلى والعالم الأعلى ، وكذلك فعل الجنيد . يضاف إلى هذا أن كلا المفكرين كان يرى أن العالم المادي الذي يحيا فيه الناس مليء بالخداع الذي ينبغي أن يتجنب

٣ - كان أفلوطين والجنيد يعتقدان أن الروح مشتقة من العالم الأعلى وأنها نزلت منه ووجدت نفسها في العالم الأسفل محبوسة في الجسم الطبيعي ، ولذلك فإنها تحن إلى العودة إلى وطنها الروحي عن طريق المجاهدة والرياضة الروحية في محاولة لكسر قيد الجسم وإفناء المادة الجسمية التي تحبسها

٤ - كان كلا الرجلين يعتقد أن عودة الروح نقية كما كانت قبل حلولها في المادة الجسمية مستطاع ، وكانا يريان أن في إمكانهما التخلص من ثنائية الجسم والمادة عن طريق المجاهدة لتعود نقية خالصة واحدة فترتفع إلى عالمها الأصلي.

٥ - كان المفكران يريان ان للروح وجودا سابقا على اتحادها بالجسم الإنساني وتمثلها في الحياة الدنيوية وكذلك وجودا تاليا للحياة الجسمية أيضا .

٦ - وبالنسبة للجنيد فلقد كان يعتقد بوجود ثلاثة عوالم:

١ - عالم ما قبل الحياة

١ - عالم الحياة

٣ ـ عالم ما بعد الحياة.

وكذلك فعل أفلوطين .

وقد دلل الجنيد على صحة هذا الرأي بآيات من القرآن ضمنها رسالة له سماها برسالة الميثاق واستشهد بفكرته هذه بالآية الكريمة (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ( الأعراف ١٦٧ ) . هذا بالنسبة إلى الحياة الإنسانية التي تطفح بالعذاب الروحي. وأما الآية ، (وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ) ( الأعراف ١٦٨) فتقوم دليلا على الحياة الروحية بعد

الموت بتأويل يرجعون بالعودة إلى العالم الآخر. وأما الآية التي تتصل بحياة الروح قبل نزولها إلى الجسد فهي (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم؟ قالوا ، بلى ، شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين ) ( الأعراف ١٧٢ ) . وتعني هذه الآية أن الله جمع الأرواح أو الوجود الإنساني كله وأخذ عليهم الميثاق بربوبيته لهم فاعترفوا بذلك ، ومن ثمّ أذن لهم بالاتحاد بالمادة الجسمية التي تكون الوجود الدنيوي المادي . وبعد ذلك حذرهم من أن يحتجوا عند تحقق الوجود الثالث ليوم القيامة بغفلتهم أو نسيانهم

٦ ـ كان كلا الجنيد وأفلوطين يرى أن النفس تصعد إلى وطنها بعد خلاصها من الجسد فترى الله بقوة مشاهدتها ، والطريقة لتحقيق هذا الغرض هي المجاهدة التي تهدف إلى التخلص من ثقل الجسم والخلاص من التركيب والخروج إلى عالم الروح بصعود الروح الإنسانية إلى الأعالي . وهذه المرحلة وتحققها يطلق عليها اصطلاح الفناء سواء بالعربية أو بما يقابلها باللاتينية واليونانية.

٧ يتفق أفلوطين والجنيد في أن الروح في صراع دائم مع ضعفها وهواها ويعتبران ذلك امتحانا لها وبلاءً يعني نجاحها فيه تحقيقا للغرض من وجودها.

٨- يتفق الجنيد وأفلوطين في فكرة الأسفار الأربعة أو المراحل التي تقطعها النفس الإنسانية لتحقيق كمالها الروحي أثناء وجودها في أسر الجسم المادي، وقد رأينا مدلول هذا المصطلح عند الجنيد.

أما أفلوطين فيتمثل هذا المنهج عنده في الجدل الصاعد والنازل الذي هو أربعة مراحل ، فالصعود مسبوق بمرحلة التصفية ، والنزول مسبوق بمرحلة الفناء . فبذلك تتبين وجوه من الشبه كثيرة بين الفيلسوف الروحي والعارف الصوفي ويبدو في وضوح وجلاء أن التصوف ليس مجرد مبالغة ساذجة في الزهد ولا غرورا إنسانيا يحمل في طياته الأمية والغفلة والجهل وإنما هو فلسفة كاملة تجعل الروح أساسا ومدارا ليكون في ذلك استقلالها الفكري وكيانها الخاص ، الذي يختلف عن متعارفات المدارس المادية التي

تعاصرها وتعيش في بيئتها . وجد الجنيد البغدادي الحل الفلسفي للمشكلة التي كان يعاني منها أصحاب المثل العليا الذين ينفرون من أصحاب النزعات المادية في الحياة الإسلامية في القرن الثالث الهجري سواء منها الجانب السياسي أم الاقتصادي أم العسكري أم ما إلى ذلك .

لقد أقام الجنيد التصوّف على أساس عقلي يستطيع أن يناقش أصحاب المدارس الأخرى بمقتضاه وأن يقرن الحجة بالحجة ، وأن يتجه هذا الاتجاه في يقين عقلي يزيده اقتناعا بجدوى ما يفعله .